التَمرُدْ في شِعْر الحُطيئه
أسبابه
ونتائجه
دراسة من المنظور النفسي والاجتماعي

بقلم
الدكتور هادي سدخ
صغير العزاوي
الدكتورة أميرة محمد
محمود ألبياتي

المقدمة

مازالت النفس الإنسانية تعد بحق من الأمور المبهمة في كثير من جوانبها لعدم ثبوتها على حالة واحدة أو مسار واضح، فالإنسان يخضع لعوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية وسايكولوجية تجعل نفسيته غير مستقرة، فهي من الأمور التي لا يمكن إخضاعها للفحوص المختبرية التي تكشف بوضوح عن هذا المرض أو ذاك ((فعلم النفس لا يزال يحبوا مقارنة بالتطور الحاصل في باقي العلوم، وان معظم الأسئلة التي تنتصب علامات استفهامها حول هذا العلم، لا تزال عائمة تبحث عن إجابة مقنعة. إن دراسة الإنسان مضنية وشاقة وشائكة تحتاج إلى جهود وأراء كثيرة ومتشعبة)).[١]

وقد يجد الطبيب النفساني صعوبة في الوصول إلى مكامن نفسية الأشخاص الذين هم تحت عنايته، فما بالك بأناس تفصل بيننا وبينهم مئات السنين، فالدراسة النفسية لأي شاعر من شعراء عصر ما قبل الإسلام تكون أمراً في غاية الصعوبة لبعد الشقة، وصعوبة الكشف عن مكنونات نفس لا نعرف إلا قليلاً من أخبارها ونقرأ طرفاً من أشعارها.

ووجدت خير نموذج لهذه الدراسة نفسية الحطيئة الشاعر المخضرم الذي كان يرزح تحت وطأة عقد سلطت عليه ضغطاً عنيفاً ماز طريقة حياته، وأسلوب معيشته حتى طبعت شعره بطابع التمرد والخروج على معظم القيم المتعارف عليها في عصره مستعيناً بشعره وما وصل إلينا من أخباره .

ولا بد لنا أن نعرف التمرد تعريفاً موجزاً قبل أن نلج هذه الدراسة:

التمرد: ((لغةً)):- ((مَرَدَ كَنَصَرَ وكَرُمَ مُرودَاً ومُرودةً ومرادةً، فهو مارِدٌ ومَريدٌ ومتمردٌ، أقدم وعتا، أو هو أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف)).[٢]

التمرد: ((اصطلاحاً)):- ثار وتمرد: ((تمرد، عصيان)) مترادفتان في حركة انتفاضية عسكرية في الغالب ومحصورة ((فتنة، شغب)) مترادفتان في تحرك جمهور في جو متوتر من الألفاظ التي أطلقت في التاريخ العربي على كل تحدٍ للسلطة.[٣]

---

(١) علم النفس التجريبي / ٥

(٢) القاموس المحيط ١/ ٣٣٧.

(٣) معجم المعاني / ٩٩ – ١٠٠.

وقد تتسع دائرة التمرد؛ إذ تعني العمل من اجل الخروج على ما هو متوارث ومتعارف عليه بين الناس في شتى الميادين. ويتضح لنا من هذا أن التمرد هو الخروج على ماهو مألوف من أنظمة وقوانين وعادات وتقاليد ومواضعات اجتماعية في جماعة معينة، أو مستوى معين وناتج عن عوامل كثيرة منها ; إن الفرد يعاني من الإحباط أو الحرمان، الأمر الذي يؤدي به إلى التمرد، فيأتي إشباعاً لرغباته منطلقاً من عالم اللاشعور* أو الدوافع اللاشعورية الكامنة وراء تصرفاتنا السلوكية الشعورية والتي أطلق عليها ((مگدوگل)) العالم النفساني الانكليزي في كتبه الأخيرة اسم النزعات أو الدوافع الفطرية.(١)

هذه النزعات تمتد جذور مكوناتها إلى أعماق تاريخ الشخصية منذ الولادة ((فدورة الحياة التطورية تتضمن تاريخ حياة الكائن أو الإنسان، والمجرى الذي تسير فيه هذه الحياة، وقد تتخذ تحليل دورة الحياة منحىً سيكولوجياً أو اجتماعياً أو سلوكياً أو إنسانياً يصنع ما يسمى أسلوب الحياة)).(٢) المحكوم بعوامل وراثية لا مجال لذكرها ألآن، وعوامل بيئية ((فالعوامل البيئية المختلفة تؤثر في كلٍ منا لا سيما بعد الميلاد كتأثير الحالة الاقتصادية والعائلية والمستوى الحضاري وما شاكل تلك من مؤثرات بيئية)).(٣) فالإنسان محكوم بما يحيط به حكماً يوجه سلوكه الشخصي توجيهاً يتماشى مع ذلك التأثير قوة أو ضعفاً، ومن الصعب عليه في مراحله العمرية اللاحقة التخلص من تلك التأثيرات التي سيطرت على تصرفاته وأفعاله الشعورية أو اللاشعورية، والحطيئة أحد المتمردين بفعل عوامل كثيرة سأجملها فيما يأتي.

(*) اللاشعور هو مجموعة تلك الانطباعات والمؤثرات التي ارتسمت في نفوسنا والتي تتجمع وتنتظم تحت اسم البناء او البنية النفسية، ويعمل على تكوين هذه البنية مصدران رئيسان هما:

١. الفطرة أي كل ما يتصل بتاريخ النوع الذي انحدر منه الفرد.

٢. الاكتساب هو مجموع تلك الانطباعات التي يحصلها الفرد بعد تكوين بيضته المخصبة. المدخل الى عالم النفس: صالح الشماع / ٢٥/١.

(١) المدخل إلى علم النفس/ ٢٥/١.

(٢) علم النفس والطب النفسي/ ١٠٩.

(٣) المدخل إلى علم النفس ٢٦/١.

مجهولية نسبه وأثره في تمرده: -

إن النسب كان يمثل المبدأ بالنسبة للفرد، فكلٌ يفاخر بنسبه وحسبه، ومن يفتقد النسب يكون عرضة للعاري والمنقصة، وهذا ما قاسى منه شاعرنا، فهو رجل مشكوك في نسبه، ونسبه كما يروى متدافع بين القبائل، وكان إذا غضب على قبيلة انتمى إلى أخرى ... وسأل الحطيئة يوماً أمه : مَنْ أبوه فخلطت عليه فقال(١): -

تقول لي الضراءُ لستَ لواحدٍ ..... ولا اثنين فانظرْ كيف شرك اولئكا
وأنتَ امرؤٌ تبغي أباً قد ضللتهُ ..... هبلتَ* ألمّاً تستفق من ضلالكا

فبحثه عن أب في رأي أمه حماقة وضلالة، فجملة النفي ((لست لواحد)) دلت على حالة نفسية كانت تقضّ مضجع الحطيئة، فهو يشخص على لسان أمه بأنه لقيط ولم يكتف بهذا؛ بل لقيط ليس من واحد ولا أثنين، انه من نطف عديدة لا يدري إلى أي الرجال ينتمي؟! ((فحين يدرك الابن أو البنت يتوجه بإلقاء سيل من الأسئلة على أبويه لتحديد هويته ومكان أسرته وما يحيط به من الناس والأشياء)).(٢) لسد حاجة نفسية في نفوس الأطفال الذين يريدون إن يعرفوا كل شيء حولهم، فحين تأتي الأجوبة مخالفة للحقيقة أو مخيبة للآمال تترك أثراً سلبياً على تلك النفسيات ((فقد توصل علماء النفس إلى أن البيئة الأولى – في الحياة المبكرة للطفل- هي السبب الفاعل لان لها أثرها المباشر على الانفعال وأثرها غير المباشر على الشخصية وذلك لان تلك البيئة تعطي الطفل أسلوبه في الشعور والتصرف. وهذا الأسلوب يؤثر في جميع سلوكه في حياته المقبلة)).(٣) ويبدو أن جواب أم الحطيئة كان مخيباً لآماله إذ لم يحقق له حاجة المعرفة النفسية التي يتطلع إليها الأبناء الناشئون ((فالطفل يتأثر ويؤثر بشكل مباشر وغير مباشر بكلا الوالدين)).(٤)

---

(١) الأغاني ١٥٩/٢ الخزانة ٤٠٧/٢، عاهات الشعراء في الجاهلية والإسلام ص:١٤ ديوان الحطيئة ٣٣١.

* يقال (هبلته أمه) أي ثكلته. ينظر ديوان الحطيئة ٣٣١.

(٢) النمو في مرحلة المراهقة/١١ إسماعيل

(٣) p . 412 /Do ncce / philosophical psychology

(٤) دور الأب وأثره في نمو شخصية الطفل /٧٣.

فالحطيئة إذاً ليس لواحد، وهذا الأمر قد عَظُمَ عليه لاسيما هو في مجتمع يقدس القبيلة والاحساب والأنساب مما جعله يحس بعقدة النقص محاولاً تعويضها بشتى الطرق، فهو مرة يسدها بانتمائها إلى القبائل وأخرى بتمجيده الحسب والنسب والمجد، فهو إذا مدح فبعراقة النسب وعلو المجد، وإذا ذم فبهما، وثالثة بصب جمّ سخطه على الناس، ولو سنح لي الوقت بأن أضع إحصائية للألفاظ التي تؤدي معنى الحسب والنسب والمجد، والمروءة لوجدت إنها تأخذ حيزاً كبيراً من ديوانه. وسأورد بعض النماذج من شعره نراه فيها يتغنى بشيءٍ قد فقده، وظل يبحث عنه دون جدوى إلا انه حاول تعويضه من خلال شعره حين يمجد أحداً، أو يحط من قدر أحد، فشاعرنا كان يرزح تحت وطأة مؤثرات نفسية تحكم تصرفاته وأساليب تعامله مع الناس، ويرى فرويد ((إن المثيرات الخارجية تنهال على الإنسان من كل جانب... ولو لم يتسلح هذا الجسم الحي بما يقيه ويحميه لقتلته المثيرات)).[١] وقد تسلح شاعرنا بشعره الذي كان يحاول به سد نقصه ويعتقد إدلر ((إن الشعور بالنقص كامن في الوضع الإنساني وكي يكون الإنسان إنساناً لابد وان يكون فيه شعور بالنقص يحاول دوماً التغلب على ذاته)).[٢] وهذا ما اخفق به شاعرنا حين سلك طريقاً سلبياً اعني به التمرد. وقد تعاطف د. محمد مهدي البصير مع الحطيئة بقوله ((انه لم يكن طعاناً في الأعراض)).[٣] ولم يك الدكتور البصير موفقاً فيما ذهب إليه، فقد هجا الحطيئة أمه وزوجته ونساء قومه هجاءً مقذعاً؛ إذْ اسقط ما فيه على الآخرين كدناسة العرض واللؤم والسفه وهذا ما نراه عند مرضى البارانويا*، فقد اسقط الحطيئة ما يقاسي منه على الآخرين، وبذا يكون اللاشعور قد تغلب عند الحطيئة على الأنا الأعلى ((فقد جعلت التجربة المُرة الأنا الأعلى عاجزاً عن كبح رغبات الأنا الأدنى وكذلك عاجزاً عن التكيف مع العالم الخارجي)).[٤] فتجربة الحطيئة مع والدته جعلته مستجيباً للانا الأدنى الذي يلحّ بالثأر لنفسه من أمه والآخرين فظلت تجربته الأولى تمارس عليه ضغطاً قهرياً يحكم سلوكه بين الناس.

---

(١) ما فوق مبدأ اللذة / ٤١.

(٢) عقدة اوديب /١٤٢.

(٣) عصر القرآن /٨١

* ((المصاب بالبارانويا يسقط على العالم الخارجي الاهتمام الذي أصبح عبئاً عليه ويكون مريض البارانويا صغير النفس متريباً يعتقد إن الناس جميعاً يراقبونه ويضطهدونه أو يحبونه)) ينظر:الماركسية والتحليل النفسي/٢٢.

(٤) م.ن

إنّ مرضى البارانويا يجدون أنفسهم دون الآخرين وهذا ما رآه شاعرنا فحاول بدافع السعي إلى التوازن أن يسلك سلوكاً سلبياً في شعره. فهجاؤه لا يخلو من الطعن بالأعراض والاحساب والأنساب وكذلك مدحه، فإذا مدح فبالنسب وإذا ذمّ فيه، أليس هو الذي رفع بني أنف الناقة ببيت شعر ؟! حيث كان آل شماس يعيَّرون في الجاهلية بأنف الناقة، فلما قال الحطيئة هذا البيت مدحاً لهم: -(١)

قومٌ هم الأنف والأذناب* غيرهم ..... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

ومن قصيدة يمدح بها علقمة بن علاثةٍ، يقول: -(٢)

إذا قايسوه المجد أربى عليهم ..... بمستفرغٍ ماء الذناب سحيل

ويقول من القصيدة نفسها: -

وجرثومةٌ لا يقرب السيل أصلها ..... فقد صَدْ* عنها الماء كل مسيل

ونراه يلحّ في مدحه وهجائه على المجد والأرومة، وما في معناهما، فهو يقول من قصيدة يهجو بها الزبرقان بن بدر ويمدح بغيضاً: -(٣)

لهم سَوْرةٌ في المجدِ لو ترتدى بها ..... براطيل* جواب* نبتْ ومناقره

---

(١) ديوان الحطيئة /١٥، العقد الفريد ٣/٤١٤.

* الأذناب: الزبرقان وأهل بيته/ ينظر الديوان ١٥

(٢) ديوان الحطيئة/ ٤٣

* الجرثومة أصل الشجرة تجمع إليها الريح التراب . ينظر القاموس المحيط ٤/٨٩.

* صدّ: أي اخذ من كل وجه ولم يأتها . القاموس ١/٣٠٦.

(٣) الديوان/ ٤٣

* براطيل: المعول، ينظر: القاموس ٣/٣٣٤.

* جواب: الذي يجوب الركايا: القاموس ١/٤٩.

ومن قصيدة أخرى قوله: - (١)

سيرى أُمامَ أُولاكَ الأكثرون حصىً ..... والأكرمون أباً من آل شمَّاسِ
قد ناضلوكَ فَسَلُّوا من كنانتهم ..... مجداً تليداً ونبلاً غير أنكاسِ

ومن قصيدة أخرى قوله: - [٢]

هو مدَّ بيتَ المجدِ حَديْ ..... ـثُ بناهُ شماسٌ وعامِرْ
ويقرَّبُ المجدَ البعيـ ..... ـد بحيثُ يغضبُ أو يُفاخِرْ
الواهبُ المائةَ الصفا ..... يا فوقها وَبَرٌ مُظاهِرْ

فهنا نراه يكرر في بيتين متتالين لفظة ((المجد)) ويلحُّ في اغلب قصائده في المدح أو الهجاء على المعاني التي تمجد الأرومة والاحساب والأنساب.[٣]

يتضح لنا من هذه النماذج الموجزة مدى ما يعانيه الشاعر من فقدان فضل المجد والحسب، فقد حاول التعويض عنهما بتركيزه على المفردات والمعاني التي تمثل له فضل هذا الجانب المفقود من حياته، وهذا ما نسميه اليوم بـ ((تعويض النقص)) فالشعور بالنقص يسبب ألماً نفسياً شديداً.[٤] لأنه يعد دليلاً على الضعف المخجل، ولذا فان الذي يشعر بالنقص يحاول إخفاء النقص فهذه الحيل تنشأ بدورها أفكاراً تعويضية وخيالات عظمة وسيطرة.[٥] وهذا ما نراه شاخصاً في شعر الحطيئة الذي حاول أن يعوض إحساسه بالنقص بمعانٍ وألفاظ تدور حول الحسب والنسب والإباء والمجد، وبهذا يكون الشاعر ضن انه قد سدّ بهذه الأدوات الجاهزة ما يفتقر إليه على ارض الواقع، فالحطيئة كان يفتقر إلى الشعور الاجتماعي والانسجام مع مجتمعه، وكأني بـ ((أدلر)) قد وضع هذه الخلاصة لتنطبق على حالة الكثيرين ومن يعيشون حالة الغربة في مجتمعاتهم.

---

(١) ديوان الحطيئة ٥٢/٥٠
* انكاس: النِكس من السهام الذي جعل أعلاه أسفله، فهو ضعيف جداً، القاموس ٢٥٦/٢.
(٢) ديوان الحطيئة ص ٦٠-٦٢.
(٣) ينظر: ديوانه/ ١١، ٦٤.
(٤) (٥) ينظر: عقدة اوديب ص ١٥١.

ومنهم الحطيئة ((ونظراً لافتقار المرء إلى الشعور الاجتماعي والى اعتبار الآخرين ومطالبته في نفس الوقت بطلبات غير معقولة لفت النظر إليه وللاعتراف بمكانته يجد إن مقدرته للسير بطريقة حسنة

مع الناس لفي تضاؤل مستمر)).[١] فقد ضل شاعرنا مضطرباً نفسياً، ولم يستطع أن يتكيف مع واقع مجتمعه((فان اضطراب الشخصية المعتلة اجتماعياً قد تسلك به سبيلاً معادياً للمجتمع حتى يقع صاحبها في مشاكل اجتماعية لا يتعلم منها أبداً)).[٢] فقد كان الحطيئة في حالة نكوص إلى نشأته الأولى جعلته عاجزاً عن التخلص من خطيئة أمه ومجهولية أبيه وحسبه ونسبه فهو يتحرك بفعل هذه العوامل مجتمعة؛ إذ رزح تحت وطأة عادات وتقاليد قبلية صحراوية جافة قاسية في معظم جوانبها تمجد الاحساب والأنساب مفاخرةً بقوة القبيلة وسطوتها وتحتقر من ليس له قبيلة أو حسب يعرف بهما، وقد حاول الشاعر أن يعوض هذا النقص من اجل ديمومة وجوده في هذا المحيط القبلي. فشاعرنا يجد نفسه عاجزاً عن تحقيق تعويض النقص وكذلك عاجزاً عن تحقيق هدفه ألا وهو الانسجام مع الآخرين، ولقد أدرك شاعرنا أن سبب ما لحق به من هذا الأذى النفسي هو خطيئة أمه التي نعتها بالسفه والفجور فانصب عليها بلسان هجائه اللاذع في قوله: - [٣]

جزاكِ اللهُ شراً من عجوز ..... ولقّاكِ العقوقَ من البنينا
تنحي فاجلسي عني بعيداً ..... أراحَ الله منكِ ألعالمينا
ألمْ اظهر لكِ البغضاءَ مني ..... ولكن لا أخالكِ تعقلينا
أغْرِ بالاً إذا استودعت سراً ..... وكانوناً على ألمتحدثينا
حياتكِ ما علمتُ حياة سوءٍ ..... وموتكِ قد يسر الصالحينا

---

(١) عقدة أوديب / ١٥١.
(٢) التحليل النفسي والفن / ٤٩٤.
(٣) ديوان الحطيئة /١٠٠.

فهذه الأوصاف التي نعت بها أمه تنم عن مدى سخطه عليها مدركاً خطيئاتها بحقه، ونراه في هذا الهجاء الذي اقتصر به على والدته من دون زوجها وبني عبس، هو أشد إقذاعاً في القصيدة

السابقة. ولنلتفت إلى الكره والاحتقار اللذين جهر بهما في قوله لها ((تنحي فاجلسي عني بعيداً)). ويخيل إلينا أن غضبه عليها أو زجره لها هو أشد إقذاعاً من السباب، لأنه يدل على الاحتقار والزراية، فالشاعر كان يعبرّ عن نقمته الشديدة بألفاظ ومعان يسيرة واقعية، لكنها في الآن ذاته عميقة الدلالة على ذلك الاسوداد الذي ما برح يطبق على نفسه باعثاً فيها الشعور بالوتر والنقمة، ولقد كان الشطر الثاني أشد دلالة من الأول، فهو يجهر بتمنيه موتها لأنها تمثل سوأة وسِبة له بين الناس، ولا يريد إن تعيش فبحياتها نكد الشاعر ووصمة عاره، فهو يعالنها البغضاء والكراهية. أما في البيتين الأخيرين، فينتقل من الحقد المباشر إلى الصور المشوهة الماسخة، فيشبهها بالغربال لكثرة ثرثرتها وتفاهة حديثها. ويكاد الشاعر لا يُعني في هذا النوع من الهجاء بالصقل والتهذيب كما في سائر قصائده، فكأنه لا ينظم أثراً شعرياً، بقدر ما يحدّث حديثاً عادياً ألِفَه في تعايشه معها. وهذا يدلنا على أن الشاعر كان ينطوي دائماً على التذمر والشكوى، وإن البواعث الخارجية لا تكاد تلمّ به حتى يثور لها مهما تكن ضئيلة ويسيرة. ويمكننا أن نقول إن هذه الأبيات ليست أبيات هجاء بقدر ما هي تنفس رجل عصبي المزاج، متوتر الحواس، كثير الانزعاج من نفسه ومما يحيط به ومن يعايشهم.

ويشتد به الحقد على أمه وأبيه سوية، فهو يقول: - [1]

ولقد رأيتكِ في النساءِ فسُؤْتني ..... وأباً بنيكِ فساءني في المجلسِ

وهنا أراد بـ ((أبا بنيك)) انه ليس أباه حقاً.

---

(١) ديوان الحطيئة / ١٠٢.

ويبدو أن أمه بفعلها جعلته ساخطاً على النساء ضارباً الأمثال بنفورهن وخيانتهن لا يفرق بين نساء أقاربه، أو النساء الأباعد، فقد هجا اقرب النساء إليه بعد أمه ألا وهي زوجه التي شاركته شظف العيش وتحملت منه كل سلبياته، فهو يقول: - [1]

أُطوّفُ ما أطوفُ ثم آوي ..... إلى بيتٍ قعيدتُهُ لُكَاعِ

فلفظة ((لُكَاع)) تدل على شدة الدنس واللؤم في هجائه لزوجته، فالمرأة اللكاع هي الشديدة اللؤم. ولعل هذا الهجاء الذي يعبرّ فيه الشاعر عن واقع نفسيته تعبيراً مباشراً يدلنا على ميزة خاصة من مميزاته ألا وهي إسقاط ما لحق فيه وأمه على الآخرين. ويتبين لنا من هذا أن هجاءه لأهله كان وجهاً من وجوه هجائه لنفسه، وان نقمته عليهم كانت امتداداً لنقمته على واقعه الذي لا يمكنه أن يتحرر منه، فظلت عقدة النقص تتحكم في شاعرنا وتوجهه حيث الشعور بالنقص، فالحطيئة يجد نفسه خلقاً مشوهاً ممسوخاً ليس كالآخرين، ولذا فإنه يحاول دائماً إسقاط ما يمقته من المعايب الملتصقة به على الآخرين.

وقال يذم أباه، ويعيّر رهطه بـ ((أعراضهم وقدح نسائهم)) بقوله: - [2]

إنّ الذليل لمن تزور ركابهُ ..... رهْطُ ابن جحشٍ في مضيقِ المحبسِ
لا يصبرون ولا تزالُ نساؤهم ..... تشكو الهوانَ إلى البئيس الأبأسِ
رهطُ ابن جحشٍ في الخطوب أذلةٌ ..... دُسمُ الثيابِ قناتهمْ لم تُضْرسِ

فإن لفظتي ((البئيس- الأبأس)) تدلان على شدة الهوان بفضل الصياغة فضلاً عن معناهما، فهم كثيرو الدنس، يقعدون عن الحروب، لا يمنعون الظلم عن جارهم ويعيرهم إنهم لا يدفعون الذل والهوان عن نسائهم، فإذا ألمّ بهم الغزاة، فإنهم يتركون نسائهم للعدو ويهرعون للهرب، وهذه الصورة بلغت غاية التشويه والامتهان؛ لأن الدفاع عن المرأة عند الجاهلي كان أعز من الدفاع عن الروح، فالمرأة كانت تمثل له شرفه وأصله.

---

(١) (٢) ديوان الحطيئة / ٣٣٠، ٣٣١.

كما نراه يسخط على أبيه المزعوم ناعتاً إياه بالخزي والعار: - [1]

لحاكَ اللهُ ثم لحاك حقاً ..... أباً ولحاك من عمٍ وخالِ
فنعمَ الشيخُ أنتَ لدى المخازي ..... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤمَ، لا حياكَ ربي ..... وأبوابَ السفاهةِ والضلالِ

أنت ترى إن العبارة في هذه الأبيات تميل إلى الضعف والركاكة، ففيها الألفاظ المتكررة اليسيرة ك ((لحاك)) و ((بئس)) و ((الشيخ)) مما يدلنا على إن الشاعر في هذه الأبيات لم يكن ليجاري أسلوب زهير في التنقيح والتنخل وإنما يرسل المعاني التي تخطر له في أسلوب دنيّ قريب فليس في هذه الأبيات تشبيه ولا استعارة ولا حلة من الحلل البيانية فالشاعر لم يكن ينظم وفقاً لدربته الفنية الصادقة وإنما يحاول أن يتنفس تحت وطأة النقمة والوتر. والواقع إن والدته بعد أن أنكرت إنها ولدت الشاعر من اوس سفاحاً وادعت انه من الافقم أخي زوجة اوس، وقد تزوجت رجلاً أخر من عبس بعد موت اوس الذي كان مشوب الأصل، خاملاً ذرياً، وقد كان الشاعر يأمل إن تتزوج والدته رجلاً كريماً يقبل عثرته ويفيد من جاهه، إلا أن أمله فُجع إذ رآها تأتيه بهذا الشيخ الذليل المتهدم، فهو إذ يقول له ((لحاك الله من أب وعم وخال)) لم يكن يقصد ما يقول بالذات، وإنما كان يريد أن يؤكد لنا إن هذا الرجل لا يصلح لشيء فلا خير فيه لأي من أهله، فكيف لسائر الناس؟ وهكذا، فان هذه اللعنة تدلنا على مدى احتقار الشاعر لزوج والدته، ثم نراه يلتفت إلى تصرفه بين الناس، فإذا هو لا يقل بشاعة عن تصرفه بين أهله، فهو لا يطمح إلى المعالي، بل يلمّ بكل مخزية لاشك إن زوج والدته لم يكن على هذا الواقع تماماً؛ لأن الشاعر في البيت الثاني لا يهجو زوج والدته بما يصدق فيه وحسب، وإنما ينيط به معنى هجائياً عاماً. وكذلك الأمر في البيت الأخير حيث يصفه باللؤم والسفاهة والضلالة، ولقد أتت لفظة ((الضلال)) ضعيفة المعنى، تدل على أن الشاعر اقبل عليها بيسر تحت وطأة استحواذ الغضب.

---

(١) ديوان الحطيئة /٣٣٤.

((قبح خِلْقته وتأثيرها على نفسيته))

لقبح الخِلْقة تأثير نفسي كبير على صاحبه، فهو يسلط عليه ضغطاً مزدوجاً داخلياً وخارجياً يجعله ثائراً على واقعه متمرداً عليه، ويرى أدلر :- ((إن النقص في أحد الأعضاء أو مجموعة منها يظهر ذاته في التأثير العام في النفس أثناء عملها والفكر والأحلام وفي اختيار المهنة وفي الميول الفنية والقدرات)).[١] هذا إذا كان النقص عضوياً، فكيف بالتشويه الخلقي كما هو الحال عند الحطيئة، لابد أن يترك ضغطاً أشد وشعوراً بالنقص أعظم على الشخصية لأنه يجعل فروق التباين حاصلة بين صاحب العلة والأسوياء(وهناك أسباب ومؤثرات مسؤولة عن الفروق الفردية في الشخصية، فالشخص النحيل الجسم، يبدو انه أكثر انسحابياً متوتراً ومنطوياً)).[٢] وإذا كان لنحافة الجسم أو نحوله اثر على نفسية الإنسان، فما بالك برجل يعاني من أكثر من تشويه! فالحطيئة قصير القامة محطوء الرجل دميم الخلقة قبيح الوجه، وهذا لم يتهمه به احد إنما اعترف به في شعره كما في قوله: - [٣]

أرى وجهاً قبح الله خَلْقَهُ ..... وقُبَّحَ من وجهٍ وقبحَّ حامِلهُ

فالرجل يسأم من نفسه، فكيف بالآخرين؟! وهذه السآمة جعلته يفقد نفسه ((وفقدان الإنسان لنفسه إنما ينشأ من شعور الفرد تجاه دنيا مشحونة بالعداء وفقدان الأمان)).[٤] فشاعرنا حاول أن يصلح ما فقده من عناصر نفسيته المحطمة فظل يبحث عن تحقيق الذات للتغلب على قبح خلقته والظفر بشيء من التوازن النفسي ولكن بوسيلة سلبية وهي مهاجمة الناس والحط من أقدارهم، ويرى أدلر ((إن الأفراد ذوي العاهات الجسيمة غالباً ما يجهدون للتغلب على ما لديهم من نقص، أو يحاولون التعويض عنه)).[٥]

---

(١) عقدة أوديب / ١٣٩.

(٢) المدخل إلى علم النفس / ٣٣٣.

(٣) ديوان الحطيئة ٣٣٣.

(٤) الاختبارات والمقاييس النفسية / ١٦٥- ١٦٦.

(٥) المدخل إلى علم النفس / ٣٣٢.

فبأي شيء عوض شاعرنا نقصه؟ لاشك انه حاول التعويض بالنيل من الآخرين عن طريق الثورة عليهم وعلى أعراضهم وتقاليدهم وسلبهم كلما يفتقر إليه هو، وهذا ما نسميه بالإسقاطات، فهو يسقط مافيه من المعايب على الآخرين إلا إن ثورته لاتهيء له أسباب التعويض إلا من ناحية فرض شخصيته على الآخرين وليس أدل على هذا من هجائه للزبرقان بن بدر الذي أكرمه وآواه، فقد هجاه لا لشيء – كما يبدو لي – إنما لان الزبرقان كان حسن الطلعة وسيماً وهذا ما يفتقده شاعرنا، فقد اسقط الشاعر مافيه على غيره بدافع نفسي خفي لخلق التوازن بينه وبين الآخرين، فشاعرنا كان يكافح في سبيل استبقاء الذات والمحافظة على التوازن الجسمي والعقلي والسعي وراء الكمال الذي اخفق شاعرنا بالاقتراب منه؛ إذ ظل يكابد من عوامل النقص المعتلجة في ذاته ((فاعتبرت الذات مجموعة من العمليات النفسية التي تعمل كمحددات للسلوك أو مجموعة من الاتجاهات والمشاعر التي يحملها الفرد تجاه نفسه)).[١] فقد اصطرعت في نفس الحطيئة مشاعر مع نزعاته النفسية تجاه مجتمعه ومكانته الذاتية في ذلك المجتمع محاولاً إثبات وجوده الذاتي والانتصار والانتصار على ما يهدد ذلك الوجود ((فان قانون الحياة الأساس هو التغلب على النقص وعدم الكفاية ويجب أن تعتبر نظم الحياة بمثابة كفاح يرمي دائماً إلى التكيف حسب مطاليب العالم، وبما إن هناك تناقضاً بين هذه المطاليب والمشاكل الناشئة عن العالم الخارجي من جهة، وجهاز الإنسان وقواه من جهة أخرى فلابد من ارتكاب أخطاء)).[٢] وهذا ما وقع فيه شاعرنا ((فالشعور بالنقص الناشئ عن قصور عضوي أو عدم كفاية في المحيط أقوى من المعتاد يؤدي هذا إلى الاضطرابات والتغيرات الجسدية والعاطفية)).[٣] وأهم هذه التغيرات تلك التي تطفو على السطح متمثلة بتعامل تلك الذات مع محيطها تعاملاً غير متوازن في الأعم الأغلب، فإن اضطراب الذات تتم من جراء الصراع بين الهو والانا الأعلى أي بين الغرائز الفطرية وبين التحديات التي يفرضها العقل، أو التقاليد والمفاهيم والقيم الاجتماعية. ولذا فإن الحطيئة ظل باحثاً عن سد النقص ساعياً إليه، فقد ذكر الرواة طرفاً عن هيئته، فهو لم يك وسيماً، ولا جميلاً، ومعاشر الناس يعاملون من سلبه الله تلك الصفات بالجفوة والغلظة، وأحياناً بالعطف الذي يقرب من إثارة عقدة ذلك المسلوب.

---

(١) نظريات الشخصية / ٦٩٦.

(٢) عقدة اوديب / ١٤٢.

(٣) م.ن / ١٤٢.

فهم إما يبعدونه عن مجالسهم ويطرحونه جانباً كأنه لم يك من بني آدم، وأما أن يعاملوه بنظرة دونية تصل إلى حد التحقير لاسيما إذا كان من ذوي المواهب، إما إذا كان من ذوي المواهب فالمسألة تختلف ((وقد استغل هذا الجانب الحيوي بعض ذوي العاهات فأفرغوا لهم جهدهم بغية الاشتهار، وبهدف تغطية ما يعانون منه من عاهات)).[١] ومنهم الحطيئة الذي لم يتخذ طريقاً ايجابياً لسد نقصه، فقد ذكر المبرد (انه كان متعطشاً للهجاء لما كان يعانيه من قبح منظره، وهجا نفسه فقال: - [٢]

أبتْ شفتاي اليوم إلا تكلما ..... بشرٍّ فما ادري، لمن أنا قائلهْ
أرى لي وجهاً قبح اللهُ خلقهُ ..... وقبّحَ من وجهٍ وقبّحَ حاملهْ

إن هجاءه لنفسه يدل على غاية الحقد والثورة على القدر والوجود، انه يريد أن يكون بخلاف ما قُدّر له، لكنه لا يستطيع، ولقد أصبحت ذاته الواعية المثالية تكره ذاته الواقعية المشوهة، لهذا نراه يلعن ذاته ووجهه، فقصة هجائه لنفسه تدل دلالة عميقة على واقع نفسية الحطيئة المريض، فحين تعصف به سويداؤه، ولم يجد من يصب عليه جم غضبه وهجائه، يلتفت إلى نفسه ليفرغ شحنات عصابه على نفسه، وهنا تلتقي في الحطيئة المازوخية والسادية، فهو سادي كما علمنا. بهجائه للآخرين، ومازوخي بهجائه واحتقاره لنفسه، فهو مثلما يريد إيذاء الآخرين بهجائه، نراه يرتد إلى ذاته فيؤلمها بهجاء ذاته، أو هجاء أمه ورهطه. وكان يرافق قبح المنظر عاهة أخرى هي عاهة القصر التي كانت سبباً في لقبه بالحطيئة، لقربه من الأرض وقيل لدمامته، وقيل لأنه كان محطوء الرجل* ولعل صفة القصر عند الحطيئة كانت لا تقل إيلاماً ومعاناة عن بقية العاهات الأخرى، وربما كانت أشد وأعنف، لأن العرب – كما هو معروف – تمدح بالطول وتضع من القصر.[٣] وفي مثل ذلك المجتمع الذي يتغنى بكمال خلقة الرجل، ويفاخر بطول القامة لم يمتلك شاعرنا تلك المقومات، الأمر الذي أضاف إلى عقده عقدة أخرى، فلقبحه وسوء منظره كان الناس يتجنبونه حتى إذا رأينا من يقربه فخوفاً من لسانه، أما الذي لم يعرفه فيطرحه جانباً لدمامة منظره.

---

(١) عاهات الشعراء في الجاهلية والإسلام /١٤.
(٢) ديوان الحطيئة / ٣٣٣.
* الرجل المحطوءة هي التي لا أخمص لها. القاموس ١٢/١.
(٣) الكامل: المبرد ٩٢/١، عاهات الشعراء ١٥.

ويروى أن الحطيئة أتى مجلس سعيد بن العاص وهو على المدينة يعشّي الناس فلما فرغ الناس من طعامهم وخفّ من عنده، فإذا رجل قاعد على البساط قبيح الوجه كبير السن سيء الهيئة وجاء الشُرّط ليقيموه، فقال سعيد: دعوه وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارهم وهم لا يعرفونه، فقال لهم الحطيئة: ما أصبتم جيد الشعر، قال له سعيد وعندك من ذلك علم؟ قال: نعم، قال: فمَنْ أشعر الناس، قال: الذي يقول: -

افلحْ بما شئتَ فقد يبلغُ ..... بالضعف وقد يُخدعُ الأريبُ

قال ثم من ؟ قال: فحسبك والله بي عندي رغبة أو رهبة، إذا رفعت احد رجليَّ على الأخرى، ثم عويت عواء الفصيل في أثر القوافي، قال ومن أنتَ؟ قال: أنا الحطيئة فرّحب به سعيد، وقال له: قد أسأت في كتمانك إيانا نفسك منذ الليلة، وقد علمت شوقنا إليك، والى حديثك ومحبتنا لك. وأكرمه وأحسن إليه، فقال: -[1]

لعمري لقد أضحى على الأمر سائس ..... بصير بما ضرّ العدو أريبُ
سعيدٌ فلا يغررك خفة لحمه ..... تخدد عنه اللحم فهو صليبُ
إذا رغبتَ عنا غاب عنا ربيعنا ..... ونسقي الغمامَ الغر حين تؤوبُ
فنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره ..... إذا الريح هبتْ والمكان جديبُ

ولو لم يعرفه لضل الحطيئة مركوناً جانباً ولنتصور أن مجتمعاً يقيس على المنظر، ويدفع بالقبيح دون أن يعرف جوهره، لاشك أنه يكون عامل ضغط على من يعاني من هذه العقدة، ولولا شر لسان الحطيئة لما هابه أحد، أو عطف عليه أحد، وإذا كان ذلك في عصور سحيقة، فالذي يثير الحزن في نفس المصلحين أن مجتمعنا المتطور مازال يتخذ من المظهر مقياساً، ولا يلتفت إلى الجوهر، ولذا أعطي الحطيئة بعض الحق في تمرده، فقد لاذ بلسانه ليضمن قوت يومه في مجتمع يموت فيه من ليس له عشيرة تحميه، ولا مآل من ذوي الجاه يدنيه.

---

(١) ديوان الحطيئة / ٢٠٦ – ٢٠٧ ، الشعر والشعراء ٢٠١ – ٢٠٢، الحطيئة دراسة في نفسيته وشعره ص١٧-١٨.

وروى ابن قتيبة:- ((إن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: رأيتُ الحطيئة بذات عرق فقلت له يا أبا مليكة أيُّ الناس أشعر؟ فاخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية فقال هذا إذا طمع)).[١] فقد خاف الناس من شره، وقد نجح الشاعر في طريقته، وتأثير وسيلته، وهذا يتجلى بخوف الناس منه وإكرامهم له دفعاً لشر لسانه.[٢]

وأرى إن بعض مَنّ بالغوا في إكرامه ليس سجية في أنفسهم إنما خوفاً من هجاء الشاعر، فقد أشترى أولئك أعراضهم بإكرامهم الحطيئة وإن الناس كانوا يبادرون إلى قضاء حوائجه ويبالغون في كسب رضاه خشية هجائه اللاذع الذي كان يتحاشاه كل من يريد أن يأمن على عرضه، فهو حين يهجو يكون هجاؤه مراً لاذعاً محاولاً إسقاط ما فيه على الآخرين كما في قوله:-[٣]

ابلغْ بني عبسٍ بان نجارهمْ ..... لؤمٌ، وان أباهم كالهجرسِ*
يعطي الخسيسةَ، راغماً من رامها ..... بالضيمِ بعد تكلحٍ وتعبسِ

تدل لفظتا ((لؤم – هجرس)) على بشاعة المهجو، وهذه الدلالة بدورها تعطينا دلالة نفسية ((اسقاطية)). فشاعرنا قبيح الخلقة، ورأى من المناسب أن يسقط قبحه على الآخرين وكذلك لؤمه.ويبدو جلياً أن الحطيئة ((كان مهاب الجانب يتلقى بالإكرام من كل من عرفه بالاعتذار من كل من سبقت إليه منهم جفوة لأنه لم يكن يترفع عن هجاء الناس له فهو لم يكن ذا عرض نقي، ولعل ذلك هو السر الذي جعل الحطيئة يخلع عذاره، ويطلق لسانه في أعراض الناس)).[٤]

يتبين لنا أن عقدة سوء الخلقة تركت أثراً عميقاً في نفسية الحطيئة فكانت تسلط ضغطها على الشاعر إذ أنطقته بما لا يرضي الآخرين، ألم يكن هذا ثورة من الشاعر على وضعه، وضجراً من خلقته؟ لاشك أن لعامل هيئة الخلقة أثراً نفسياً يترك آثاره على الآخرين وهذا ما وجدناه عند بشار بن برد الذي كان سليط اللسان بسبب خلقته. إذاً فالإحساس بفقدان هذا الجانب قد يدفع بصاحبه إلى تعويضه سلباً أو إيجاباً.

---

(١) الشعر والشعراء / ٢٠٠.
(٢) ينظر الشعر والشعراء ٢٠١-٢٠٢، الخزانة ٤١/٢.
(٣) ديوان الحطيئة / ١٠٢.
* الهجرس: القِرد والثعلب أو ولده واللئيم. القاموس ٢٥٨/٢.
(٤) الحطيئة شاعر من عبقر/٩.

وكان تعويض الحطيئة سلبياً؛ لأن في هذا التعويض أذىً على الآخرين وإسقاط ما في نفس الباعث على المتلقي من مناقص لاسيما حين يهجو الحطيئة من يصده أو يقصر معه وقد يفهم المتلقي أن الشعور بالنقص يحمل صاحبه على السلبية وهذا ليس دائماً؛ بل هناك الكثيرون من ذوي العاهات سعوا جاهدين إلى سد مناقصهم سداً ايجابياً وذلك بإبداعهم وما تركوه لمجتمعاتهم من أعمال خلدتهم على مر الأزمان.

فقــره

الفقر من أشد الآفات الاجتماعية ضرراً على الانسان، فهو سبب لجلب الكثير من عوامل الاقتصاد والتهميش والجهل والمرض، فليس أقسى ولا أمر ولا اعتى من الفقر حتى أن الانبياء والمصلحين وضعوا في اولويات اهدافهم محاربة الفقر لأنه يترك أثاراً سلبية عميقة على المجتمع، فهو من أشد عوامل الهدم والفتك في بنية المجتمع، وأخلاقيات أهله، قال الامام علي كرّمَ الله وجهه:

((لو كان الفقر رجلاً لقتلته)).[1] فأينما وجد الفقر وجد الجهل والمرض وتفشت الجريمة، وعمّ الفساد لأن كل إنسان يكافح ليعيش، ويكدح من اجل البقاء، والفقر يهدد هذا البقاء فكيف إذا كان متقعاً في مناخ نفسي معتل كما وجدناه متمثلاً في الحطيئة، ويرى ((فرويد)) في كلامه عن حاجات الإنسان ((أن الغريزة تبدو في صورة حاجات والحاجات على نوعين: -

١. حاجات فسيولوجية، كالحاجة إلى الطعام والشراب والراحة...الخ
٢. حاجات نفسية اجتماعية كالحاجة إلى الحب والأمن والحرية...الخ

ويقترن ظهور الحاجات بصبغة انفعالية مقبولة أو منفرة غير مقبولة حسب ما يتوقعه الإنسان من إشباع لهذه الحاجات، أو حرمان منها.

---

(١) نهج البلاغة / ٥٢٤

وقد يحدث نتيجة محاولة الإنسان في إشباع حاجاته أن يصطدم بقيود المجتمع وعندئذ يحدث صراع بينه وبين المجتمع)).[١] هذا الصراع يتخذ أشكالاً متعددة ; إما أن يكون بسعي المرء بهمة ونشاط حتى يحقق لنفسه درجة تمكنه من الشعور بالمساواة ، أو ما يقرب منها مع الآخرين بردم هوة النقص بينه وبينهم، أو أن يخرج متمرداً عليهم كأن يكون فاتكاً أو لصاً أو هجّاءً، وبذلك يجعل له وزناً في أعين الآخرين؛ وإنْ كان هذا الطريق سلبياً إلا انه يحقق للشاعر بالنقص شيئاً من التعويض، وهذه المسألة هي في جوهرها صراع من أجل البقاء، بقاء في كل أشكاله لان من يحس بالنقص أو العجز عن مجاراة المجتمع يموت موتاً بطيئاً، ومن يرى نفسه عاجزاً عن تحقيق العيش الكريم فهو تحقيق بحبوحة من العيش فهو ميت، وقد أشار إلى هذا فرويد، فهو يرى ((إن هناك غريزتان: غريزة الحياة، وغريزة الموت، وتصدران عن طاقة حيوية)).[٢] إذاً فسلوك الحطيئة كان من اجل البقاء، والبقاء عنده تحقيق الذات، أما الوسيلة فهي الانتقاص من الآخرين بفضل موهبته الشعرية التي سخرها لإخافة وإرهاب الآخرين، فهو لم يك يعاني من الفقر فحسب بل كان يعاني من فقدان الطمأنينة والأمان وهاتان الحاجتان إنسانيتان ضروريتان لنشأة الإنسان نشأة صحيحة، فشاعرنا لم يجد له أماً تحنو عليه، وتنمي فيه بذرة الخير ومحبة الناس، فها هو يهجوها مبيناً قسوتها، وسوء تربيتها، وفقدان حنانها، بقوله: -[٣]

جزاكِ اللهُ شراً من عجوز ..... ولقّاكِ العقوقَ من البنينِ
فقد سوستِ أمر بنيك حتى..... تركتهم أدقّ من الطحينِ
لسانكِ مبردٌ لم يُبقِ شيئاً ..... ودرُّكِ درُّ جاذبةٍ دهينِ
وإنْ تُخلى وأمركِ لا تصوني ..... بمشتدٍ قواهُ ولا متينِ

فهي قاسية لم تحسن تربية أبنائها، ومن أين يأتيها الإحسان وهي أمَة فاجرة؟ ولا أباً يشفق عليه ويمنحه الحنان، ويعلمه الرجولة، ويوفر له أسباب العيش، فأبوه الذي لم يكُ أباً حقاً، كان في نظر شاعرنا بؤرة للمخازي والمعايب، وهو أبعد ما يكون عن المفاخر جامعاً للؤم، والسّفه والضلالة.[٤]

---

(١) المدخل إلى علم النفس / ٢٣٢.
(٢) م.ن / ٢٣٣.

(٣) ديوان الحطيئة / ١٠١.

(٤) ينظر: م.ن /٣٣٤

وليس له رهطٌ يحتمي بهم من غوائل الزمن وآفة الفقر. ولاشك انه كان بائساً في طفولته، شقياً في شبيبته، متمرداً ساخطاً في كهولته وشيخوخته. ويبدو لي أن لطفولة الحطيئة اليائسة أثراً عميقاً في نفسه في المراحل التي تلت تلك الطفولة ((فالشخصية تتشكل بصورة ثابتة من السنة الخامسة أو حواليها متجاوزاً التطور الذي يحدث بعد تلك المرحلة يكون بشكل أساسي نتيجة لما سبق من عوامل وتطور)).[١] فقد جعل شاعرنا من شعره ركناً حصيناً يلوذ به، فأبوه وأمه كان ورهطه لسانه الذي احتمى به الشاعر من قسوة الحياة وآفة الفقر، ولولاه لما حصل على ما يقيم أوَدَه، وأوَدَ أسرته، ويدفع عنهم غائلة الجوع والعوز مستعيناً بشاعريته، وأذى لسانه كما أسلفنا. ويروى (أن الخليفة عمر ((رض)) لما منع الحطيئة عن هجاء الناس كان الحطيئة قد سكت على مضض، وقد ساءه أن يكم نزعاته ويكبت شهواته، وقد كان لسانه مصدر رزقه، وسبب قوته، وخير ما يفصح عن شعوره هذا وضيقه بشدة عمر ((رض)) عليه قوله: -[٢]

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ فلم تدعْ ..... شتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ

وحميتني عرِضَ اللئيمِ فلم يخفْ ..... ذمي وأصبح آمناً لا يفزعُ

فعمر ((رض)) بمنعه الحطيئة عن الهجاء، فقد قطع رزقه وضيق عليه أمره كما يبدو من الخبر، وهذا إن دل على شيء إنما يدل بوضوح لا يقبل الشك أن الفقر سبب مهم من أسباب تمرد الحطيئة، ومن يقرأ ديوانه يجده حافلاً بالألفاظ التي تدل على الفقر والفاقة ورقة الحال والجوع...الخ،

---

(١) Haffman ,L. Scott , p., Elizabeth . p. 113

(٢) ديوان الحطيئة / ٢٧٨٠ ، الأغاني ٢/ ١٧٥ ، الإسلام والشعر / ١٠٠

وذلك كما سنرى من بعض النماذج الشعرية، فهاهو ينعت نفسه بالبائس الفقير بقوله: -[1]

ما كان ذنبُ بغيضٍ لا أباً لكم ..... في بائسٍ جاء يحدو أيْنُقَاً* شُسبَا*
حطتْ به من بلاد الطود عاريةٌ* ..... حصّاء* لم تترك دون العصا شذَبا*
ما كان ذنبكَ في جارٍ جعلتَ له ..... عَيْشاً، وقد كان ذاقَ الموت أوكَرِبَا
أخرجتَ جارهم من قعْرِ مظلمةٍ ..... لو لم تُغثهُ ثوى في قعرها حقبا

فهو يبدو في هذه الأبيات بائساً كاد يموت من الجوع لولا بغيض الذي أخرجه من حفرة الفقر، ولولاه لبقي فيها دهراً طويلاً. ويلحّ على نعت نفسه بصفة البؤس بقوله من قصيدة أخرى يهجو بها الزبرقان ويمدح بغيضاً: -[2]

واللهِ ما معشرٌ لاموا أمرأً جُنُباً ..... منْ آل لأْي بن شماسٍ بأكياسِ
ما كان ذنبُ بغيضٍ لا أبا لكم ..... في بائسٍ جاء يحدو أخر الناسِ

كما نراه ينعت نفسه بالفقر والفاقة بقوله من القصيدة نفسها: -[3]

ما كان ذنبُ بغيضٍ أن رأى رجلاً ..... ذا فاقةٍ عاشَ في مستوعر شاسِ*

---

(١) م.ن / ١٧.
* أيْنقا: أيْنُق، جمع ناقة . ينظر: القاموس ٢١٠/٣
* شسبا: العجاف الضمر. ينظر القاموس ٨٧/١
* عارية: مانزل بالانسان من الفقر وشدة الحال ، ينظر: القاموس ٣٦١/٤
* حصاء: عارية ، القاموس ١٢/١
* الشذب: من العيدان ، القاموس ٨٦/١.
(٢) ديوان الحطيئة / ٤٤-٤٥ .
(٣) م.ن / ٤٨

* شاس: المكان المرتفع الغليظ . ينظر: القاموس ٢٢٣/٢

وفي قصيدة أخرى يهجو الزبرقان ويمدح بغيضاً نرى حشداً من الألفاظ التي تدل على رقة الحال والفقر والفاقة والمسكنة بقوله: -(١)

تولَّيتُ لا آسي على زائلِ امرئٍ ..... طوى كشْحهُ* عني وقلت اواصرُهْ
قروا جارك العيمان* لما تركتهُ ..... وقلّصَ عن بردِ الشراب* مشافرُهْ*
سناماً ومحضاً* انبتا اللحم فاكتست ..... عظامُ امرئٍ ما كان يشبعُ طائرهْ
هم لاحموني* بعد جهدٍ وفاقةٍ ..... كما لاحمَ العظمَ الكسيرَ جبائِرهْ
ألمْ أكُ مسكيناً إلى الله راغباً ..... على رأسهِ إن يظلمَ الناسَ زاجرهُ*

كما يلحّ الشاعر على ذكر ألفاظ الجوع والقِرى ونقيضه والطعام والشراب، وكل هذه الألفاظ لها علاقة وطيدة بالفقر والفاقة التي كان يعاني منها شاعرنا، فالقرى مثلاً عنده صفة ينعت بها الممدوح ويسلبها المهجو، ومثل هذا قوله من قصيدة يهجو بها بني بجاد: -(٢)

قبحَ الإلهُ بني بجادٍ إنهم ..... لا يصلحونَ وما استطاعوا أفسدوا
بُلدُ* الحفيظةِ واحدٌ مولاهم ..... جُمٌ* على مَنْ ليس عنه مُجْمدُ
مَنْ كان يحمدُ في القرى ضيفانهُ ..... فبنوا بجادٍ في القرى لم يحمَدوا

فهو في هذه الأبيات نعت بني بجاد بالبخل وعدم إقراء الضيفان.

---

(١) ديوان الحطيئة / ٢٥، ٣١، ٣٢.
* تركني : القاموس ٤/ ٤٠٩
* العيمان: المشتهي للبن : القاموس ٤/ ٢٥٢
* قلص من برد الشراب: كره الماء من شهوة اللبن : القاموس ٣١٤/٢
* محضاً: اللبن الذي لم يخالطه ماء حلواً أو حامض / القاموس ١٣٣/٤
* لاحموني:اللُّحْمَة:بالضمة القرابة وما يجبر به اللحم الكسير القاموس ١٧٤/٤
* زاجره: شيبه: القاموس ٣٧/٢
(٢) ديوان الحطيئة / ١٨٩
* بلد: جمع بليد وهو الرخو عند الحفايظ: القاموس ١/ ٢٧٨

* جمد: بخلاء : القاموس ٢٨٤/١

والحطيئة يمدح بالكرم ويذم بالبخل لا لأنه يمجد هذه الخصلة ويحقّر الأخرى إنما لدافع نفسي خفي، فهو دائماً بحاجة إلى الناس يطلبهم النوال، ولذا نراه يلح على صفة الكرم ونقيضها، ومن هذا مدحه لبغيضٍ بصفة الجود هاجياً الزبرقان.(١)

ويلح على هجاء الزبرقان ومديح بغيضٍ بالكرم والبذل كما نرى في قوله: -(٢)

إذا الناسُ مدُّوا للفعال اكفهم ..... بذختَ بعادي السراة طويلِ

وجرثومةٍ لا يقربُ السيلُ أصلها ..... فقد صدَّ عنها الماءُ كل مسيلِ

نراه في هذين البيتين قدّم صفة الكرم والبذل على الحسب والنسب، أي قدّم البذل على ((جرثومة)) ومعنى هذا التقديم هو حاجة نفسية في كنه الشاعر، فإن حاجته إلى المال من ممدوحه أكثر من حاجته إلى الحسب والنسب، ولذا نراه أرجئ ذكر الحسب والنسب والصفات الأخرى كما في بقية القصيدة. ونراه يفعل مثل هذا في مديحه لبني شماس بن لأي فهو يقدم صفة الكرم على غيرها كما في قوله: -(٣)

وإنْ كانت النِعماءُ فيهم جزوا بها ..... وأن انعموا لا كدروها* ولا كدُّوا

مغاويرُ أبطالٌ مطاعيمُ في الدجى ..... بنى لهم آباؤهم وبنى الجَدُّ

وكان الأولى به أن يقدم صفات الشجاعة والبسالة والفروسية على الكرم، ولكن لكون الحطيئة فقيراً جائعاً يرى من يقدم له المال والطعام أسمى وأجل وأرفع قدراً من الفارس الشجاع المطاعن، وتتجلى لنا هذه النزعة بأوضح صورها من خلال إلحاحه على ذكر الطعام والشراب بشره، وهنا يذكر الزبرقان وهو يهجوه بأنه قد وعده بالتمر واللبن إذا أضطر الشاعر وبدافع نفسي إلى ذكر ((اللبن والتمر)) كما في قوله: -(٤)

أغررتني وزعمتَ انكَ لابن بالصيفِ تامِرْ

---

(١) ديوان الحطيئة / ٢٨ - ٢٩.

(٢) م.ن / ٤٢

(٣) ديوان الحطيئة / ٦٦.

* لا يكدرونها بالمطل عليه ولا بالكد والإلحاح. ينظر: هامش الديوان

(٤) ديوان الحطيئة / ٥٦.

ونجد ذكره ((اللبن)) في قوله من قصيدة يمدح بها بغيضاً، ويهجو الزبرقان: -[١]

وهُمُ سقوني المحض إذْ ..... قَلصت عن الماءِ المشافِرْ*

ألم يك هذا الاستخفاف بما متعارف عليه تمرداً؟ ألم يك احتقاره لنفسه تمرداً؟ إنه لم يرضَ عن شيء البتة لأنه نشأ فقيراً وشبّ معدماً وشاخ بائساً محروماً ، فقد جعله الفقر يحس بأن المجتمع قد ظلمه وسلبه كل شيء ولاسيما الأغنياء منهم ، فقد كانوا يتمتعون بلذائذ الحياة بينما شاعرنا محروم. مما يسد رمقه وقيم أوده، فالنقص في تلبية حاجات النفس يؤدي إلى اعتلالها وخروجها عن الطريق السوي وهذا ما وقع فيه شاعرنا إذ أدرك إن لا سبيل لمعالجة فقره إلا تخويف الأغنياء بسلاطة لسانه ومرارة هجائه وشدة انتقامه ممن صده أو منعه العطاء.

---

(١) م.ن / ٦٢.

* المشافر: للبعير كالشفة للإنسان : ينظر القاموس ٦١/٢

الخاتمــة

لم تكن رفقتي للحطيئة ثقيلة، ولا باعثة على السأم والملل لكثرة ما فيه من العيوب؛ بل لقد نسيت كل سلبياته وغرابة حياته، فطابت لي الاقامة عنده، والتطواف في ثنايا شعره، والوقوف على مكنونات نفسه، وألفيتني مشدوداً إليه منطلقاً من قول رسولنا الكريم((ص)) :- ((كلكم لآدم وآدم من تراب)) فهو وان فصلت بيننا وبينه قرون طولية إلا انه إنسان يحمل بين جنبيه قلباً ويكن في جوانحه مشاعراً لا تختلف كثيراً عن مشاعرنا، فمشاعرنا واحدة من حيث الجوهر؛ مختلفة من حيث المظهر، فقد وجد نفسه ضحيةً لمقادير ليس في وسعه التحكم بها أو تغيير مجاريها.

وليس كل إنسان بقادر على إن يشق طريقه كما يريده الآخرون منه ، ولا بوسعه إن يطرح كل تلك الضغوط جانباً حتى يكون إنسانا سوياً، وكان شاعرنا رهينة لعقد متعددة تدفع به في سبل شتى وتحكم تصرفاته، وأساليب عيشه، فالرجل محروم من اغلب مقومات الحياة ، إن لم نقل كلها فلابد إن يكون ذئبا مبادراً بالهجوم كي لا يهاجم، ولصاً يسرق رغيف الخبز ليعيش في مجتمع صحراوي يتسم بالقسوة والعنجهية ما عدا الناس الخيرين.

هكذا قاتل الحطيئة بلسان هجائه ليحقق وجوده ويكسب لقمة عيشه وعيش أبنائه وزوجته باحثاً عن حالة التوازن بسلوكه النفسي الذي كشفناه من دراستنا لديوانه، فإن التوازن النفسي إذا توفر عند الإنسان سيجعله مستقراً وقادراً على الموائمة بين الذاتي والموضوعي، وعكس هذا سيخلق أزمة نفسية فلا يستطيع الإنسان أن يوفق بين الذاتي والموضوعي فتتأزم علاقته بمجتمعه وتكون مختلة ينجم عنها توتر واضطراب في العلاقات بين الفرد ومجتمعه؛ الأمر الذي قد يؤدي بالشخصية إلى الإخفاق ونهج طريق التمرد والخروج على ما هو مألوف بحكم فشل دافعية الأهداف لدى الشخصية المريضة ويكون هذا الإنسان عاجزاً عن الوصول إلى تكامل الأنا.[1]

---

(١) علم النفس والطب النفسي: د. عبد المنعم الحفني ص ١١٥

وهذا ما عانى منه شاعرنا، وقد حاول استعادة توازنه بخروجه على سير مجتمعه بواسطة موهبته، فقد عاش الحطيئة بيئة سلوكية للمحافظة على ذاته، وقد فرضت مطالب بيئة الشاعر عليه إن يسلك هذا السلوك بمقتضى حاجاته المعيشية، فلم تكن بيئة الشاعر متطورة أو قائمة على الأوهام؛ إنما كانت بيئته واقعية تفرض سلوكاً نفسياً عليه ترك بصماته في شعره. فبيئة الشاعر لم تكن محايدة تتسم بالسماحة؛ إنما كانت بيئة قاسية قائمة على خشونة البادية وقساوة البدوي المقدس لقبيلته والمفتخر بحسبه.

فقد عاش شاعرنا منذ نشأته حتى موته ظروفاً نفسية أملت عليه أن يتخذ هذا السبيل منهجا في حياته التي لم تكن مهادنة له ولم يك محباً لها بل ازدراها كما ازدرى نفسه.

نتائج البحث

يتوقف جهد الباحث في أي موضوع على النتائج التي تكون زبدة بحثه وخلاصته المكثفة وثمرة نجاحه، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث: -

١. إن مسيرة الحياة تبدأ من الخطوات الأولى اعني بها الطفولة، فقد كانت طفولة الشاعر باعثاً على السقوط في الاعتلال النفسي، فقد كان عرضةً لما يسمى اليوم بـ ((البارانويا)) و ((النوراستانيا)) و ((الذهان)) فتمرده جاء نتيجة لانفعالات مكبوتة بدون انقطاع أو لصراعات داخلية لفشل مكرر ولطفولة غير متكيفة، فكان يعاني من شعور قوي جداً بالنقص ويرى نفسه مضطهداً، ولذا فقد وقع شاعرنا فريسة لعقد عديدة سلطت عليه ضغوطاً نفسية شديدة أدت به إلى أن يتمرد على كل شيء.

٢. كان الحطيئة فاقداً للراشد الذي يوجه شخصيته ويحقق هويته ولذا فقد تشوشت فكرته عن هويته فاختلطت عليه الأمور فأدت إلى خلق حالة الإرباك في نفسيته ولاسيما في طور الرجولة.

٣. إن انحراف أم الحطيئة جعل في نفسه عقدة كراهية لسائر النساء، فهو يراهُنَّ مصدراً للخطايا والآثام؛ لان الأم تمثل كنف الأمان للطفل في أدواره الأولى ولكن الشاعر حين صُدِمَ بحقيقة أمه تشوه في نظره مثال الأمومة المقدس فانسحب هذا التشويه - بدافع الانتقام النفسي – على سائر بنات جنسها.

٤. إن لمجهولية النسب الأثر الأكبر في نفسية الشاعر، فان حاجة الفرد إلى حالة الانسجام لمجتمعه ومعرفة مكانته وأسرته في ذلك المجتمع لها اثر كبير على نفسية شاعرنا ولاسيما في مجتمع يتسم بتقديس الارتباط الشديد بالقبيلة.

٥. إن الشعور بالنقص إما أن يعوض تعويضاً ايجابياً إذ يحاول صاحب النقص تعويضه بطريقة الكمال حين يكون مبدعاً مقدماً للناس ما فيه خدمة لهم أو يعوض تعويضاً سلبياً حين يحاول صاحب النقص سد نقصه بالتمرد على الأعراف والقيم السائدة، وهذا ما رأيناه عند الحطيئة.

٦. يبدو لنا إن دافعية سلوك الحطيئة كانت منبعثة من الشعور بغبن المجتمع والثأر لذاته من ذلك المجتمع الذي لم يُقبل عليه إلا خوفاً من لسانه، فقد جعل شعره وسيلة لتحقيق رغبتين في آنٍ واحد؛ الأولى:- الانتقام لنفسه من ذلك المجتمع بإسقاط ما يعتلج في نفسه من العيوب عليه.والثانية:- التمتع بلذة الثواب من الآخرين، فلم يكن عطاء أولئك له تعزيزاً اجتماعياً إنما هو دفع لضرر قد ينالهم من لسانه، فإنّ ما حَصُل عليه من هبات الذين يدفعون عن أنفسهم تجاهه صار مثيراً شرطياً جعل الشاعر يمضي في هذا السبيل المنحرف، فإنّ هذا العطاء هو المثير لاستجابة الشاعر، فكلما تكرر هذا المثير يتبعه تكرار استجابة الشاعر، فقد كان راضياً عن نفسه بما يتلقاه من الإثابة على مدحه لهذا أو ذاك.

٧. كان الحطيئة يعاني من توتر نفسي بدافع سلوكي غير سوي، فهو ذو شخصية معتلة اجتماعياً، فما حصل منه ما هو إلا رد فعل مغاير لخفض التوتر النفسي لديه.

قائمة المصادر

١. الاختبارات والمقاييس النفسية، عبد الجليل ابراهيم الزوبعي، جامعة الموصل، ١٩٨١م.
٢. الإسلام والشعراء، يحيى الجبوري، مطبعة المعارف ، بغداد، ١٩٦٤م.
٣. الأغاني، ابو فرج الاصفهاني، تحق:ابراهيم الابياوردي،دار الكتب المصرية،القاهرة ،١٩٦٠م.
٤. التحليل النفسي والفن: د.أي شنايدر ، ترجمة: يوسف عبد المسيح ثروة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد- ١٩٨٤م.
٥. الحطيئة دراسة في سيرته ونفسيته وشعره – ايليا حاوي ، بيروت، ط ١ ، ١٩٦٥م.
٦. الحطيئة شاعر من عبقر؛ عبدالله أنيس، دار العلم للملاين ، بيروت ، ١٩٦٩م.
٧. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدنيوري ، تحق:د مفيد قميمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.
٨. العقد الفريد، ابن عبد ربه الاندلس، تحق :ابراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩م.
٩. القاموس المحيط، الفيروز ابادي ، دار عالم الكتب ، بيروت.
١٠. الكامل في اللغة والادب، المبرد، مكتبة المعارف ، بيروت.
١١. الماركسية والتحليل النفسي، تأليف: روبن اوسبورن، ترجمة: د.سعاد الشرقاوي، تقديم د.مصطفى زيون ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢م.
١٢. المدخل إلى علم النفس، عبد الله عبد الحي موسى، مكتبة الخانجي، القاهره، ١٩٧٦م.
١٣. المدخل إلى علم النفس، صالح الشماع، ج١/ط١، مكتبة الرابطة،١٩٥١م.
١٤. النمو في مرحله المراهقة، إسماعيل محمد عماد الدين ، مطابع السياسة، الكويت، ١٩٨٢م.
١٥. تاريخ الادب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملاين ، بيروت، ط١، ١٩٦٥م.
١٦. حديث الابعاء، د.طه حسين، دار المعارف، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٢م.
١٧. خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧م.

١٨. دور الادب وأثره في نمو شخصية الطفل، سلوى ابراهيم عقراوي، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٠م.
١٩. عاهات الشعراء في الجاهلية والإسلام طبيعتها وأثرها في مستوى النص الشعري، عدنان عبد النبي البلداوي، مطبعة الشعب ، ط١، بغداد، ١٩٧٧م.
٢٠. عقدة اوديب في الاسطورة وعلم النفس، باتريك ملاهي، ترجمة جميل سعيد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٢م.
٢١. علم النفس التجريبي، وليام بارنيز، بيروت، لبنان.
٢٢. علم النفس والطب النفسي،د.عبد المنعم الحنفي، مكتبة مدبولي،القاهرة،ط٢، ٢٠٠٣م.
٢٣. ما فوق مبدأ اللذة، سيجموند فرويد، دار العلم للملاين ، بيروت، ١٩٦٥م.
٢٤. معجم المعاني، نجيب اسكندر ، مطبعة الزمان ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧١م.
٢٥. نظريات الشخصية، هوك، ك، لندزي، الهيئة المصرية، القاهره، ١٩٧١م.

***الرسائل الجامعية: -**

- القبيلة في الشعر العربي قبل الإسلام، احمد النعيمي، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية الاداب، ١٩٨٤م.

***المصادر الاجنبية: -**

Doncce / philosophicalpsy psychology -1
College women j.of personality, 1970
Haffman.L.Scott, Eliabeth, New York
Random House, 1988.